

المحاضرة الأولى

د/ عماري مالك

ملحقة قصر الشلالة

المستوى: سنة ثانية.

①. مدخل لنظرية الأدب:

✓ توطئة:

لا شك أنّ مهمة البحث عن مفهوم للأدب ليست من الأمور الاعتيادية كما هو عليه الحال بالنسبة للعلوم التقليدية التي هي معروفة ومحددة بضوابطها وقواعدها المنهجية العلمية الصارمة، فقد ضل الشغل الشاغل للنقاد والفلاسفة والأدباء، هذا أنّ العمل الأدبي متحرك غير ثابت، متحول غير جامد، فنّ له روح و حركية، وعالم يتجاوز عالم التنظير والتأصيل، لدرجة أن جعل النقاد يشكّون " في مشروعية مفهوم الأدب " ¹. وليس في الأمر سهولة، لكن هل بقيت الطموحات الإنسانية عاجزة حيال ذلك؟

بالطبع لم تبق الطموحات الإنسانية المتنامية للفلاسفة والنقاد والأدباء والفنانين عبر السيرة الزمنية للتاريخ عاجزة حيال ذلك، بل راحت تفتح فضاءات النظر، ومجالات البحث عن التصورات الفنية والأدبية باختلافها، لاستخلاص المفاهيم والماهيات بعد إخضاعها للأسس العقلية بغية اكتشاف وتنقية المناهج، ثم البحث عن أنقائها وأفضلها حتى يتسنى

- مفهوم الأدب ودراسات أخرى، ستيفان تودوروف، تر: عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، 2002م، ص: 5.1

للباحث في الأدب دراسة معايير ومقولاته، و مذهب وفنونه، وذلك لتأهيله بغية متابعة حركة العلاقة بين ثنائية الإنسان والحياة.

والحق أنّ العناية بالأدب كما يرى ويليام هنري إيدسن William Henry Hudson " ترجع

أولاً وقبل كلّ شيء إلى أهميته الإنسانية العميقة الباقية ".²

وفق هذا الذي ذكرناه، سلك الكثير من النقاد في الأدبين الغربي والعربي، القديم منه والحديث إلى مسلك التنظير في الأدب، فظهرت بحوث ودراسات متنوعة تسعى للتأصيل لنظرية أدبية تفرض نفسها على الساحة النقدية والأدبية، لأنه في تصورهم أننا من " غير النظرية لا نعرف ما هو العمل الأدبي، ولا كيف نقرأه ".³ ثم لم تكتف نظرية الأدب بذلك فراحت تخطّ خطاها بثبات لتوجد لنفسها مكانا في الحقول النقدية الحديثة بالتحديد، وتصبح إحدى المواد الأساسية لمعظم الكليات والمعاهد.

في دراستنا لمادة نظرية الأدب لا بد أن نتنبّه إلى " أنّ هناك شيئا يسمى الأدب هو موضوع النظرية "،⁴ وعليه فإنّه يتعين علينا أن ننطلق من مفهوم مصطلح الأدب في تراثنا اللغوي، وفي التراثين الفرنسي والإنجليزي، حتى يتسنى لنا الوقوف على أرضية صلبة ننطلق من خلالها للتأصيل لنظرية الأدب.

. الأدب وفنونه دراسة ونقد، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، 2013م، ص:13.

³. مقدمة في نظرية الأدب، تيري إيغلتن، تر: أحمد حسان، سلسلة شهرية، العدد 11، تصدرها الهيئة العامة لقصور

الثقافة، القاهرة، سبتمبر 1991م، ص:10.

⁴. نظرية الأدب القراءة والفهم والتأويل نصوص مترجمة، أحمد بوحسن، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2004،

ص:9.

1. مفهوم مصطلح الأدب.

جاء مصطلح الأدب في لسان العرب لابن منظور بمعنى: " الذي يتأدب به الأديب من

الناس؛ سمي أدبا لأنه يأدبُ الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح. وأصل الأَدب

الدعاء".⁵

أي الدعوة، ومنه أصبحت مقترنة في بداياتها أي في العصر الجاهلي بما هو حسيّ، دعوة

الناس إلى الطعام. يقول طرفة بن العبد (ت:539هـ):⁶

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأديب فينا ينتقز

واستعمله صخر العيّ* بهذا المعنى في وصفه عقابا يقول:⁷

كأنّ قلوب الطير في قعر عُشّها نوى القسب ملقى عند بعض المآدب

و جاء الأَدب بمعنى: العَجَبُ. قال منظور بن حبة الأَسدي (ت:12هـ):⁸

بِشْمَجِي* المَشِي، عَجولِ الوَثْبِ،

غلاية للناجياتِ الغُلبِ،

حتى أتى أُرْبِيئُها بِالْأَدْبِ

⁵. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، مج1، ص: 206.

⁶. المصدر نفسه، مج1، ص: 207.

*صخر العيّ: شاعر صعلوك جاهلي توفي في عصر صدر الإسلام .

⁷. المصدر نفسه، مج1، ص: 206.

⁸. المصدر نفسه، مج1، ص: 207.

* شمجى: الناقة. أُرْبِيئُها: السرعة والنشاط. الأَدْب: العجب، وجاءت بالكسر، الإْدْب.

ثم مع بزوغ فجر الإسلام تطور اللفظ ليأخذ معنى ذهنياً، الدعوة إلى مكارم الأخلاق.
يقول صلى الله عليه وسلم: أدبني ربي فأحسن تأديبي. أي هذبني وقومني أحسن تهذيب
وتقويم. مع المحافظة على المعنى الحسي ليجمع بين المعنيين، يقول علي رضي الله عنه
مادحا بني أمية: أمّا إخواننا بني أمية فقادة أدبة. الأدبة جمع أدب... وهو الذي يدعو الناس
إلى المأدبة.⁹ وهنا كناية عن الكرم أي شجعان وكرماء. وورد في شعره بهذا المعنى الكثير
في ديوانه منها قوله:¹⁰

فَلَيْسَ يُغْنِي الْحَسِيبَ نَسْبُهُ ... بِلَا لِسَانٍ لَهُ وَلَا أَدَبٍ

أي الدعوة إلى تحصيل الأدب.

ومع العصر الأموي أصبحت دلالة الكلمة تأخذ معنى تعليمي، " فقد وجدت طائفة تسمى
المؤدبين، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة
العربية".¹¹ فظهر مصطلح المؤدب أي المعلم الذي يقوم على شؤون أبناء الخلفاء والأمراء
بتعليمهم القراءة والكتابة، ومن ذلك ما ورد في قول عبد الله بن المبارك: "عرفنا الأدب حين
فاتنا المؤدبون".¹² بمعنى أننا اكتسبنا معرفة ثقافة العرب رغم أنه لم يوكل إلينا المؤدبون

. المصدر نفسه، مج1، ص:207.⁹

. ديوان أمير المؤمنين علي . رضي الله عنه، جمع وترتيب: عبد الكريم الكرم، ط1، 1988م، ص:13.¹⁰

. تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط8، 1960م، ص:8.¹¹

* مجنونة الأدب أي التي يختلف هوبها أي ربحا غير مهذب

. أخرجه ابن نعيم في الحلية، 169/8 من طريق الوليد بن عتبة.¹²

المعلمون كما هو عليه حال أبناء الخلفاء. إلى جانب معنى التهذيب، ومن ذلك قول الأخطل مادحا (ت:92هـ) الوليد بن عبد الملك:¹³

تَعْتَادُهُ كُلُّ مِثْلَةٍ وَمَا فَقدت... عَرَفَاءُ مِنْ مُورِهَا مَجْنُونَةٌ الأدب

وقول كُتَيْبِ عَزَّة (40 - 105هـ):

بَلُوهُ فَأَعْطُوهُ المَقَادَةَ بَعْدَمَا ... أدب البلاد سهلها وجبالها

أي ملاءها عدلاً فدبَّ أهلها لما لبسوه من أمنه واستشعروه من بركته ويمنه.¹⁴ وربما عدل الشارح عن الصواب فالمعنى هو: هذب البلاد فمُلاَّت عدلا وأمنا وهذا ما جعلهم يسلموا أمرهم وينقادوا له.

ومع بروز العصر العباسي أخذ مصطلح الأدب يتوسع ليستعمل للدلالة على مكارم

الأخلاق من جهة، ومن ذلك ما ورد في شعر ابن المعتز (ت:296هـ) قوله:¹⁵

و أدب يُكثِرُ غِيظَ الجاهل ... وقوتِ نفس كانَ غير واصل

وفي معناه عند دعبل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور (ت: 246 هـ):¹⁶

أَتَيْتُ مُسْتَشْفِعًا بلا سبب * * إليك إلا بِحُرْمَةِ الأدب

و الشاعر ديك الجن الحمصي عبد السلام بن رغبان. (161 - 236 هـ).¹⁷

وليس يَعْرِفُ لي قَدْرِي ولا أدبي * * إلا مَرُؤًا كانَ ذا قَدْرٍ وذا أدب

ومثله في شعر أبي نواس (ت:145هـ) قوله:

.ديوان الأخطل، شرح وتقديم وتصنيف: محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط2، 1984م، ص:30.

13

.ديوان كُتَيْبِ عَزَّة، جمعه وشرحه: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت. لبنان، 1971م، ص:81.14

. ديوان ابن المعتز، تح: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، (د ط)، (د تا)، ص:361.15

. ديوان دعبل بن علي الخزاعي، شرحه: حسن حمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م، ص:34.16

.ديوان عبد السلام بن رغبان ديك الجن الحمصي، جمعه وشرحه: عبد المعين الملوحي و محي الدين الدرويش، (د ط)،

1960م، ص:26.17

و لا السّفال الذي لا يستفيقُ، ولا * * غرّ الشّباب ، ولا من يجهلُ الأدب

وغيرهم ك: أبي تمام (ت:231هـ)، وسبط التعاويذي (ت:583هـ)، و أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد الأشجعي الأندلسي (ت: 426 هـ)، و أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد الأشجعي الأندلسي (ت: 426 هـ).

و على معرفة أشعار العرب تارة، ومن ذلك ما أخرجه الخطيب البغدادي عن ابن عبد الحكم قال: كان أصحاب الأدب يأتون الشافعي فيقرؤون عليه الشعر، فيفسره، وكان يحفظ

عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها وغريبها ومعانيها، وفي الباب روايات.¹⁸

ثم توسع ليشمل كلّ العلوم الإنسانية، كأخبار العرب ولغتهم و علم السحر والكيماة والحساب والمعاملات والتجارة فضلا عن علوم القرآن والبيان والتاريخ، وهذا المعنى الواسع لدلالة كلمة الأدب أخذ به ابن خلدون يقول: " قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها. والأخذ من كلّ علم بطرف".¹⁹

ثم عرف المصطلح زيادة على ما ذكرناه معنى السنن التي يجب أن تراعى عند فئة اجتماعية مرموقة، كالكتاب والوزراء والقضاة، فظهرت مؤلفات في هذا المعنى منها: أدب الكاتب، أدب القاضي، أدب الوزير، أدب الحديث، أدب الطعام.²⁰ و عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرئاسة: لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل(من علماء القرن الثامن

¹⁸ . البلغة إلى أصول اللغة، أبو الطيب محمد صديق القنّوجي، تح: سهاد حمدان أحمد السامرائي، رسالة ماجستير من

كلية التربية للبنات، جامعة تكريت، إشراف: أحمد خطاب العمر، الناشر، رسالة جامعية، 92/1

. مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، ص:505.¹⁹

. ينظر، تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ج1، ص:10.²⁰

الهجري)، و الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: لابن السيد البطليوسي، و أدب الوزير: لأبي الحسن علي محمد الماوردي (ت450هـ).

كما ارتبط مصطلح الأدب من خلال بعض الإشارات الموثوقة في مؤلفات النحويين القدامى بمعنى الإعراب، ففي كتاب تصحيفات المحدثين لأبي أحمد الحسن بن إسماعيل العسكري (ت: 382هـ) مثال على ذلك يقول: وَأَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْبَرَاءِ [قَالَ] كَانَ بَوَاسِطَ وَرَاقٍ يَنْظُرُ فِي الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ وَلَا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ الْحَدِيثِ.²¹

ثم وصل مصطلح الأدب بعد احتكاك الأمة العربية بالحضارة الغربية إلى المعنى الذي نتداوله الآن، وهو كل ما أنتجته قرائح المتكلمين باللغة من مآثور شعر ونثر وحكم وأمثال وقصص، يقول شوقي ضيف: " كلمة أدب من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار الحضارة، وقد اختلفت عليها معانٍ متقاربة حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم وهو الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به التأثير في عواطف القراء والسامعين سواء أكان شعرا أم نثرا ".²²

. تصحيفات المحدثين، أبو أحمد بن سعيد العسكري، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ط1، 1982م، ج1، ص: 65. 21.

. تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ص: 7. 22.

نخلص في النهاية إلى أنّ مصطلح الأدب في الثقافة العربية لم يستقر على مفهوم موحد، بل ظلّ يتأرجح بين معاني عدّة منها: الدعوة إلى الطعام، التهذيب وحسن التناول، والإعراب.

بعد المحاولة التي قمنا من خلالها بتجلية المفاهيم والمصطلحات التي تتصل بموضوع الأدب، ومتابعتها تاريخياً ومعرفياً في الثقافة العربية، سنحاول الآن التعرض إلى هذه المفاهيم في الثقافة الغربية الأجنبية.

إن مفهوم الأدب عند الغرب لم يكتب له تاريخ كامل في مختلف اللغات وعبر العصور كما يذكر ستيفان تودوروف،²³ فقد أخذ عدّة محطات دلالية، فكلمة literature الأدب في الثقافة الإنجليزية، و literature في الفرنسية مأخوذة من litera ، وهي بذلك توحى بالأدب المكتوب أو المطبوع.²⁴ وهو معنى شمولي، كالمعرفة والثقافة الأدبية، ومعرفة اللغات والكتابات الأدبية، " فالأدب الإنكليزي في القرن السابع عشر يشمل شكسبير، وبيستر، مارفيل، وميلتن، ولكنه يمتدّ ليشمل كتابات فرنسيس بيكون وخطب جون دون والسيرة الذاتية الروحية لبنيان بل وحتى ما السير توماس براون، كما يمكن أن يضم بالإضافة إلى ذلك ليفياتن لهويز وتاريخ التمرد لكларدن".²⁵

²³. مفهوم الأدب ودراسات أخرى، ستيفان تودوروف، تر: عبود كاسوحة، ص: 5.23

²⁴. ينظر، الأدب وفنونه دراسة ونقد، عز الدين إسماعيل، ص: 9.24

²⁵. نظرية الأدب القراءة والفهم والتأويل نصوص مترجمة، أحمد بوحسن، ص: 9.25

وليس هذا المفهوم المتداول للأدب في الثقافة الإنجليزية بحاسم، لكنه قادهم فيما بعد إلى

المفهوم المتداول، والذي يعني الكتابة الإبداعية من شعر ونثر.

وبالانتقال إلى مفهوم الأدب في الثقافة الفرنسية نجده يأخذ نفس المعنى الشمولي الذي

رأيناه في الثقافة الإنجليزية، فهو كلّ شيء قيد الطبع أي " مهما كان موضوعه ومهما يكن

أسلوبه، سواء أكان علما أم فلسفة أم أدبا خالصا، فكلّ ما ينتجه العقل والشعور يسمى

أدبا".²⁶ وهذا ماذهب إليه إيغلتن أنّ الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر يشمل كورناي

وراسين و حكم روشفكول والخطب الجنائزية لـ بوسويه ورسالة بوالو حول الشعر ورسائل

مادام دوسو فينيه إلى ابنتها، وفلسفة ديكارت وباسكال.²⁷

ثم وصل مصطلح الأدب إلى الحلقة الأخيرة في سيرة المصطلح ليقتر على مفهوم،

" الأدب الخالص الذي يراد به مجرد التعبير عن معنى من المعاني، بل يراد به أيضا أن

يكون جميلا بحيث يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعتي

الشعر وفنون النثر الأدبية الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات".²⁸

ويذكر تودوروف في كتابه مفهوم الأدب، أنّ البدايات الحقيقية لكلمة الأدب في اللغات

الأوروبية، حديثة العهد جداً بمعناها الراهن: _ ونقصد هنا المفهوم الذي يقتصر على

. تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ج1، ص:10.26

. نظرية الأدب القراءة والفهم والتأويل نصوص مترجمة، أحمد بوحسن، ص:9.27

. المصدر السابق، ج1، ص:10.28

الكتابات الأدبية الإبداعية من شعر و نثر دون غيرها من الكتابات _ فهي لا تسبق القرن

الثامن عشر.²⁹

وهذا المفهوم هو نفسه الذي أشار إليه جوزيف فنديريس Joseph Vendryes حينما

نبه على عدم الخلط " بين لغة مكتوبة و لغة أدبية. فقد يجتمع المعنيان أحيانا في لغة

واحدة. ولكنهما قد يتعارضان ويتضاربان. اللغة المكتوبة في غالب الأمر عبارة عن اللغة

المشتركة، أما اللغات الأدبية فتتميز عن هذه الأخيرة في غالب الأحيان؛ لأن رجال الأدب

في كثير من الأقطار، من شعراء وقصاص يكونون طبقة منعزلة لها تقاليدها وعوائدها

وامتيازاتها، وفي هذه الحال كانت للغتهم كل خصائص اللغة الخاصة، وكانت تتطلب تهيئة

وترويضاً وتثقيفاً مهنياً.³⁰

ويفهم ممّا قدمناه أنّ مصطلح الأدب لم يعرف المفهوم المتداول الذي نعني به الكتابات

الإبداعية الفنية إلاّ مع العصر الحديث وبالخصوص القرن الثامن عشر ميلادي، ثم انتقل

هذا المفهوم . بالطبع . إلى العرب ليأخذ حظه من المفاهيم النقدية الحديثة.

. مفهوم الأدب ودراسات أخرى، تودوروف، تر: عبود كاسوحة، ص:5.29

³⁰ . اللغة المؤلف: جوزيف فنديريس Joseph Vendryes ، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو

المصرية، 1950 م ج: 1، ص:340.